دراسة شعر اسماعيل صبرى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

(٢)

حافظ وصبرى :

فاضت روح فقيد الوطن مصطفى كامل فى حين تعلقت به آمال أمته، ورنت إلى نور يقينه الوضاء عيونها فكان نعيه رجة عنيفة للوطنية الفتية، وزلزالا شديداً للنهضة الناشئة، وبكاه فيمن بكاه الشعراء بماء العيون وعيون القصيد، ومن البكاة الولهين عن عاطفة مشبوبة صبرى وحافظ، فرثاه حافظ بقصيدتين إحداهما يوم دفنه والأخرى يوم « أربعينه » ورثاه صبرى يوم الأربعين بقصيدة يخيل إلى قارئها أنه يعارض بها قصيدة حافظ، وسأجعل الموازنة بين قصيدة حافظ الأولى التى تكاد تكون مرتجلة لأنها بنت ساعات لاسيما وصبرى — كما أرى — يريد ذلك

قال صبرى فى مطلع قصيدته :

أجل أنا من أرضاك خلا موافيا ... ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل ... كما ذقت منه الحب والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما ... رآك عن الحوض المهدد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى ... إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد ... محلا به من لاعج الهم خاليا

وقال حافظ من قصيدته على قبره :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة ... فكبر ، وهلل ، والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شىء بفقده ... وهيهات أن يأتى به العمر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا ... وأين الحجا والرأى ويحك هاهيا!

(١) بدأ صبرى قصيدته بذكر الصداقة الوثيقة للفقيد ، وبأنه لو كان واعياً لرضى عنه باكيا كما كان راضيا عنه موافيا وهو مطلع ضعيف ، لأن الحديث عن وثاقة الصداقة حقه أن يكون فى العتاب لافى الرثاء ، وعبارة ويرضيك فى الباكين متهافتة ، « ولو كنت واعيا » نابية لاتلتئم وجلال الفقيد ، ورهبة الموقف ، وثنى بوصف قلبه بالصفاء فى وده واستثنى من حال صفائه يوم اعتاده الحزن كأن الحزن ينافى صفاء القلب ، ومازال هذا شأنه فى وصف نفسه حينا وأثر نعى الفقيد حينا حتى انتهى إلى أن قلبه أفعم بالحسرة وملىء بالهم فليس فيه لسرب المسرات محل حال وهو معنى جيد لو وضع فى أسلوب قوى : لأن « لم يجد محلا به من لاعج الهم خاليا » أسلوب مبتذل ضعيف .

(٢) بدأ حافظ قصيدته بخطاب القبر لأنه حياله ، ولأن فيه مهبط آماله ، وهو يريد أن يعرفه — إن كان جاهلا مكانة ضيفه وقد أحسن الخطاب نوعا ما ، لأنه وقف وقفة الواله الواجد فقيد آماله ودفن أمانيه ، وجمع فى البيت الثانى ماتنتظمه قصيدة ، فوصف مصطفى بأنه مات شهيداً ، شهيد العلا فى زهرة الشباب ، وهى صفات لاتجتمع إلا فى فرد ، وخشى أن يجد عاذلا على شدة وجده ، ومن يذكره بأن جميع الخلائق إلى هلك ، فرد على أمثال هؤلاء بأنه لم يفقد مصطفى وحده ، وإنما فقد كل شىء فى الحياة ولو أنه فقده دون

الآمال الكثر ، والأمانى البيض لنفع التأسى وأجدى التجلد ، وكأنه وجد من يزعم أن إنسانا واحدا لا يتصف بجميع الخلال النبيلة أو أن تلك الصفات معدومة فعلا وإن عرفت بأسمائها فقال لذلك الزاعم السائل : إن المروءة والوفاء والحجا والرأى متجمعة فى ذلك المسجى .

والذى أراه أن الأبيات وافرة المعانى زاخرة الأفكار وهى تشعر بفداحة المصيبة وجلال الخطب ، وقد تنقل فى المعانى تنقلا مقتدا ، أما الأسلوب فمهيه مأخذ ، كان جديرا بالمطلع التصريع لأنه دليل العناية وإن التمس العذر له بأنه فجع فشغل ، وبأن القصيدة ربيبة العاطفة لا بنت الصناعة ، كما أنه لم يكن يجدر به فى أول بيت أن يدعو القبر إلى التهليل والتكبير فى موقف الاسترحام والاسترجاع وإن اختلف حال القبر عن حال الشعب ، والشطر «وهيهات أن يأتى به العمر ثانيا» شطر متهافت جىء به لتمام البيت لا لجمال المعنى.

أغراض شـــعره

وخصائصه ، وبعض مايؤخذ عليه

ينتظم ديوان صبرى باشا مائة وثمانين قصيدة ومقطوعة ، والمقطوعات أكثر من ثلثى هذا العدد وكثير منها لا يعدو البيتين ، ولكن هذا القدر الضئيل من الشعر شمل أغراض الشعر الآتية :

المدح ، والهجاء ، والفكاهة ، والغزل ، والوصف والاجتماع ، والسياسة والشكوى ، والإلهيات والمراثى ، وبعض هذه الأغراض لم ينظم فيه أسلاف عصره من الشعراء ، فهو فيه مبدع مخترع لا تابع مقلد ، وقد أقل فى بعض تلك الأغراض وأكثر فى بعض ، وأبدع فى نواح وأقصر فى آخر ، وإقلاله وإكثاره ، وإبداعه وإقصاره يدلان على أنه كان شاعر عاطفة ومصور وجدان

لاشاعر صناعة ومصور ألحان ، وسنرى الحجج قائمة عند عرض نماذج لبعض أغراضه على قضيتنا تلك ، وأول مايلاحظه دارس شعره أن له نفساطموحا وقلبا جموحا يتحكمان فيه تحكم المستبد ، ويقسرانه قسر الطاغية ، فيحملانه على الإجادة والإبداع ، فيوقع على قيثارة الحياة أحسن الايقاع .

فشعره فى الوطنيات والإخوانيات والشكايات والإلهيات بالغ قمة الجمال لأن هذه الأغراض تتصل بالقلب وتنبع من الشعور المتدفق ، وليشاركنى القارىء فى شعورى هذا أعرض عليه أبياتا فى تلك الأغراض .

سأعرض عليه غيرها فى الأغراض التى أظن أنه قصر فيها جودة ، وإن لم يقصر كثرة .

قال يستنجز الخديو عباس وعده بمنح الأمة الدستور :

كل الممالك نولت ماترتجى ... من أنعم الشورى وملكك مطلق
مر بالذى صرحت قبل به وقل ... واصدق فمثلك من يقول ويصدق
عوذت مجدك بالكنانة أن يرى ... آمال قومك فيك لاتتحقق
كن راعيا يرعى الأسود فمن رعى ... غنما يبت يخشى الذئاب ويفرق

يشعر قارى هذه الأبيات بجرأة جريئة وعزمة عازمة لاتخشى حنقا ولا تخاف حتفا فمن هو ذلك الذى يخاطب ولى الأمر بمثل تلك الصراحة ، ويذكره بوعده ، ويستنجزه إياه ويطلب منه أن يكون صادقا إذا وعد ؟ وأى دليل أقوى فى طلبته وأدعى إلى إنجاز رغبته من دعوة المليك إلى أن يكون راعيا للأسد فيطمئن إلى سلامة ملكه ويقر طرفه بسعادة شعبه ؛ لأنه يرعى أسودا تهاب ، لاغنما تخاف عليها الذئاب ؟

وفى ذلك الغرض نفسه يستنهض الأمة لتتشبه بالترك فى طلب الدستور وهو عالم أثر هذا المطلب فى نفس السلطان فى ذلك الحين ، ويقول الأستاذ الفاضل جامع الديوان إن تلك القصيدة مرتجلة حينما سمع عن المرحوم شوقى

بك قوله فى افتتاح مجلس المبعوثان التركى :

ما بين آمالك اللائى ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها

فقال صبرى : لو أنصف شاعر الامير لأتم قصيدة بعد هذا البيت السابق بهذه الأبيات .

وإنى أشك فى هذه الرواية ؛ لأنى أستكثر أن تكون المعانى الزاخرة مرتجلة ، ولأن القصيدة تنم على روية فى ألفاظها فإن المرتجل قد يهفو فى مثل هذا الموطن الدقيق فيقع فى الحرج وعلى كل فلأن تكون مدبجة أفضل فى رأيى من أن تكون مرتجلة ؛ لأن المرتجل سائر ، والمتروى عالم ذاكر ماقد يئول إليه شعره ، وماقد يجره عليه من سخط وعدوان .

يامصر سيرى على آثارهم وقفى تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لايؤيسنك ماقالوا وما كتبوا بين البرية تضليلا وتمويها
إن يمنعوا الناس من قول فما منعوا أن ينطق الحق بالشكوى وبيديها
الحق أكبر من أن تستبد به يد وإن طال فى بطل تماديها
ما ضيع الله ظلما أمة نهجت إلى المفاخر نهجا ، وهو هاديها

إن هذه الأبيات فى صدق لهجتها ، وصفاء نبعتها لتثير النفوس ، وتحفز إلى طلب الدستور المعقول وترسل الشرر المحدق على من يقف فى سبيله ، أليس الحق أكبر من أن تستبد به يد وإن طال تماديها فى الباطل ؛ وامتد سدرها فى الطغيان؟

ومن شعره السياسى اللاذعة فكاهته المصورة لحقائق الأمور دعابته ، الممضة حقيقته ، الصادقة النزعة غايته تلك الأبيات التى أرسلها على السنة الوزراء والمستوزرين ، أو التى يستقبل بها الوزراء على أبواب وزرائهم فاستمع إليه حين يصور الحقيقة السافرة فى تلك الأبيات الثلاثة الساخرة عقب سقوط وزارة مصطفى باشا فهمى :

عجبت لهم قالوا «سقطت» ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

وهو فى هذه الأبيات ينقد سياسة مصطفى باشا فهمى ويظهرها بمظهرها الحقيقى طغيان وتجبر من ناحية ، وضعف وخور فى أخرى، وما أجمل تصويره له بأن خياطة القوم إياه تجعله فى أمن أمين وحرز حريز من أن ينال منه الدهر بوضعه نفسه مع المهانة والذل وبخنوعه وخضوعه وإلصاق وجهه بالأرض ، وقال على لسان بطرس غالى باشا :

أصبحت فى حيرة وهم ما بين مصر وبين « فهمى »
هذى تنادى نداء عان تلاف أمرى وداو سقمى
وذاك يرجو رجاء خل له أياد علىّ تهمى
دعها تنادى بما تنادى وكن على خطتى ورسمى

ومما قاله على لسان وزارة المالية تحية لناظرها الجديد أحمد حشمت باشا:

« أبعدوا أحمدا » وجاءوا بثان ظلموه كما أراد الغشوم
فتسلت بخزائن المال مظلو م تولى وجاءها مظلوم

وفى هذا القدر من الشعر السياسى جده وهزله غناء عن الاستقصاء، ودليل على ما كان لمصر فى نفسه من وفاء وولاء وهو من الناحية الشعرية يصور الروح المصرية الساخرة ، ويبرز وفرة افتنانه ، وغزارة إحسانه .

وهذا غرض آخر منبته العاطفة كذلك ، وهو الغزل ، وإنه لينبع من عين ثرة ، فيجىء فيه بمعان أنضر من الزهر وأعلى من الدرر ؛ لصدوره عن نفس متلهمة ولانبعاثه عن قلب يجيد الترجمة .

قال من قصيدة عنوانها لواء الحسن :

أنت يم الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج بين لجين : عناء وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة تقتفيها شدة . هل من رجاء؟
ساعنى آمال أنضاء الهوى بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ما خلقت لتوارى بلثام أو خباء

واستمع إليه يتحدث عن الأمانى يبلغ بها صاحبها عنان السماء حينما يضمه الليل ، فإذا ما فتح له الصبح ذراعيه انهار ذلك البناء لأنه يفتحهما له ليضم إليه ألوان الشقاء ، وحينئذ يقهقه القدر ويسخر منه الزمن ، ثم يدعو إلى أن يعرض الإنسان عن منادمة الأمانى ومعاقرة الآمال ؛ لأن نشوتها تعقب سكرة لا يضيق منها صاحبها إلا على اختيال وخمار فكم قربت من قاص تقف دونه الهمم الكبار وتقصر عن دركه العزائم الكثار ولن يغنى التصوير عن الصورة فإليك الأبيات :

نبيت من المنى نبنى صروحا وندعمها فيهدمها النهار
فيضحك ساخرا منا وقوفا على أنقاضها الفلك المدار
ذرينا من معاقرة الامانى يليها العمر من خيل خمار
فكم قربن من أمد بعيد تعثر دونه الهمم الكبار
وكم أولين من عال فمدت إليه أكفها أيد قصار

وننتقل إلى غرض آخر أتى فيه بالمعجز للداته وإن لم يكثر فيه ولو قد فعل لترك ذخيرة ثمينة فى الادب المصرى ذلك الغرض هو « إلهياته » وهذه قطعة بعنوان « بين الخوف من الله والأمل فى عفوه »

خشيتك حتى قيل إنى لم أثق بأنك تعفو عن كثير وترحم
وأملت حتى قيل ليس بخائف من الله أن تشوى الوجوه جهنم
فشأنى فى حالى يارب حيرة بها أنت من دون البرية أعلم
أقلنى من الشك الذى قد أحاط بى فشأنى فى حالى يارب مبهم
مر الحجب ترفع عنك أستقبل الهدى صريحا وينهج منهج الحق مجرم

سنسمع متزمتين يقولون: رجل يصرح بشكه، ويكرره، ويعلن زيفه ويؤكده، وإلى هؤلاء أتجه راجياً أن يتريثوا فى أحكامهم، فليس شكه فى ذات الإله الذى يخشاه حق خشيته، ويؤمل فيه أوسع الأمل، وإنما الشك فى الوسيلة التى يصل اليه بها، فيقولون، وتلك أخرى وقد جاء بالوسيلة الأنبياء، وكأنى بهم نسوا قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »، أفيكون نصيبه ممن يصيبهم غفرانه وتشملهم رحمته أم تكون الأخرى؟، وتلك هى ناحية من الشك والحيرة، وإلى أولئك أسوق عنه برهانا يصدع بالحق ويوهى جناح الباطل فى أبياته الثلاثة بعنوان « إلى الله »

تعالى الله لا يعلم كنه الله إنسان
أتبحث عنه فى واد ومنه الكون ملآن؟
أتنكره وأنت عليه إن فكرت برهان؟

ويكفى هذا الذى قدمناه من شعره دليلا على أنه كان شاعر العاطفة والوجدان وأنه لذلك — حسب — قصر فى الميدان الذى لا يمتطى فيه عاطفته، ولا يستبق فيه بمشاعره، وهو ميدان برز فيه من ليس له مثل عزته، ذلك هو ميدان المديح ومايتصل به..

والآن أرى أن ألخص خصائص شعره لإتمام البحث فقط، وإلا فالقدر الذى قدم من شعره يتيح استخلاصها دون إجهاد كبير.

(١) يمتاز شعر صبرى بنصاعة الأسلوب، وصفاء الديباجة، وجمال الألفاظ، وحلاوة الجرس.

(٢) يمتاز بتلك العاطفة المشبوبة التى تشب من بركان ثائر فتزلزل المعانى الخالدة تحيط بها هالة من الصدق.

(٣) فى شعر صبرى بديع يرتفع على البديع لأنه لا يشعرك به، وإنما تشعر بالجمال لا يقيده قيد ولا يحده عنان.

(٤) يلاحظ فى شعره خاصتان تلازمانه: استعمال الاساليب الشعبية، فيجيد الاستعمال، وكثرة جمل الاعتراض فتزيده جودة وجمالا

(٥) فى الشعر الفكاهى جميعه روح المصرى الفكه البارع النكتة السريع البديهة الحاضر العارضة.

(٦) يظهر أثر منصبه القضائى فى شعره، فكثيرا مايستقصى أولا ثم يحكم ثانيا، وان يعوز القارىء إجماع تلك الخواص، إلى أمكنتها من شعره.

بعض المآخذ على شعره

ظهر صبرى فى عصر لم تنضج فيه دراسة علوم اللغة، فأتى فى شعره قليل من الكلمات المطعون فى عربيتها، ولا يدرك حقيقتها إلا الثقات المطلعون، كما وقع فى هفوات نحوية لا يلمحها إلا المتأمل، وسأتناول بعض هذه وتلك ليتدبر عند قراءة شعره المتأدبون. ويكفيه عذرا أنا فى هذا الحين الذى نهضت فيه اللغة نهضة موموقة نرى كثيرا من أعلام القلم تند عنهم بعض هذه الهنات

(١) قال على لسان وزارة المعارف تحيى ناظرها الجديد سعد زغلول:

أهلا بسعد وسهلا * بالحاذق الفيلسوف

رجعت بدراً منيرا * مستهتراً بالكسوف

وفى الشطر الأخير مأخذان: استعمال كلمة مستهتر بمعنى « مستخف أو معناها « مولع » ووصف البدر بالكسوف، وإنما يوصف بالخسوف.

(٢) وقال من قصيدة بعنوان « نداء إلى الأقباط » :

أدمع جاوزت مدى كل حزن وتخطت حـــدود كل عزاء
وعديد وراء كل خيال وعويل فى إثر كل هناء

فاستعمل كلمة عديد بمعناها العامى وهو ندب الميت ، ومعناها العدد ، أو الند ، أو رنين القوس ولا شك أنه لايقصدها .

(٣) من قصيدة فى رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

وأخمت بالبرهان كل مناضل لو انك لم تغضب لزاد تماديا
ففاءوا إلى الحسنى ولولم تحجهم لعادت زئيرا صيحة القوم داويا

فاستعمل داويا بمعنى مدويا ، وهذا يوجب فعلا غير موجود بهذا المعنى والموجود فى لغة ضعيفة دَوِى يَدْوَى بمعنى مرض والوصف منه على فعل ، وإنما الموجود دوّى الطائر ، ودوت الرياح ، فهما مدويان .

(٤) من قصيدة فى رثاء إسماعيل نجيب :

ولو طاوعتنى كل عين قريحة لما ذاب بعض الثاكلين بكاء
وعالجت إبراهيم مما أصابه « وداهمه » حتى ينال شفاء

وداهمه وهاجمه خطأ شائع صوابه دهمه وهجمه ؛ إذ المداهمة « مفاعلة من جانبين » غير متأتية .

(٥) ومن قطعة فى الغزل

إن قابلتك الضبا فى مصر « عاطرة » فأيقنى أنها عنى تنـــاجيك

وعطر الوصف منه على فعل لأنه من باب طرب ، وقد كررها فى قطع أخر .

(٦) ومن قصيدة فى رثاء عبدالله فكرى باشا :

يا من يغر بدنياه وزخرفها تالله يوشك أن يودى بك الغرر

أراد بالغرر الغفلة ومعناها الهلاك ولا يلتئم البيت بمعنى اللفظ الصحيح

(٧) ومن قصيدة فى رثاء بطرس غالى باشا :

فتشت - لما لم أجد مقلتى كفنا - عن الفضل ليبكى معى

فأتى بكفء بمعناها المتداول وهو القادر ومعناه المثل ، ولا يتسق المعنى لو استعملنا اللفظ على النحو الصحيح .

(٨) وقال من قطعة شكر للمحتفلين به :

شكرا على مابدا من صدق ودكم فإننى من صميم القلب « ممنون »

فأتى بممنون بمعناها المتداول وهو الشكر ، وإنما هى بمعنى منقطع .

(٩) ومن الأخطاء النحوية تخفيف أنّ فى قوله :

وسموت حتى ظن أن لك حاجة عن السماك

وأنّ من شروط تخفيفها أن تقع بعد فعل يقين وهى هنا واقعة بعد ظن

(١٠) وقال :

لا تخل أفقك يخلفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به الكدر

فجزم يخلفك وهى واجبة الرفع لأنه لا جازم لها ولو استبدل بلا إن وبالواو الفاء فقال فالزم ما أخذ عليه شىء .

(١١) وقال

إن رمت شعرا هذه أفنانه يحملن من طيب الكلام زهورا

فأتى بجواب الشرط جملة اسمية غير مقترنة بالفاء ، والاقتران واجب .

(١٢) وقال :

أين صبرى من يذكر اليوم صبرى ؟ بعد أعوام عزلة وشهور

اسألوا الشعر فهو أعلم ، هلا أكلته الأسماك طى بحور

أراد بهلا هل الاستفهامية ، فأتى بهلا التى تفيد التحضيض لا الاستفهام قاصداً هل وقد أرغمه على ذلك الوزن .

والآن أيرى المرحوم إسماعيل صبرى شيخ الشعراء ، وحبيب الأدباء أنه منسى لا يذكره أحد بعد أعوام عزلة وشهور أم يعترف بالوفاء لأبناء النيل فهم يذكرونه بعد أن ضمته حانية عليه الأجداث والقبور ؟

أنت صبرى طى القلوب بما خلـــدت من آى حكمة وشعور
وابن مصر الوفى لا يعرف الـ ـعرفان يطوى فى أعصر ودهور

عبد العظيم على قناوى